سورة المائدة

obeikandl.com

﴿ سورة المائدة ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ ۝٣ ﴾

أى يأسوا من إدخال الظلام إلى دينكم وإحلال الظلام فى ذواتكم بدلاً من النور، بعدما خرجتم على يد هذا الرسول الكريم ﷺ من الظلمات إلى النور، وكذلك يأسوا من اختراق أسوار الشريعة بعد أن عصمها الله بأنوار العلم وبحجج العلماء العارفين، وبعد أن عرف الناس ربهم المعرفة التامة النافية للجهالة بالخالق الأعظم سبحانه وتعالى، فهذا أدى إلى يأسهم من تلك المعرفة الربانية فى أن يخترقوها.

أقول: واعلم أن تبديل الحكام المسلمين للعمل بالقانون الأوربى بدلاً من الشريعة الإسلامية، فإن هذا لا يقتضى انقضاء ذلك اليأس من الكفار فى إدخالهم التبديل فى ديننا، فإن الأمر ليس كذلك، فاعلم أنه ما من مسلم على ظهر الأرض سواء من الخواص أو العوام إلا وهو منكر وغير راض عن هذا التبديل ويتمنى زواله ورجوع حكم الله، ولكن لا حيلة له حتى يزيل ذلك التبديل، فإذا جاء المهدى وعيسى أزالا ذلك التبديل وقضيا بالشريعة المحمدية الغراء، ونصرا شريعة خاتم المرسلين ﷺ

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۝٣ ﴾

أى أكملت لكم نقص أنفسكم، وأتممت عليكم أنوار المعرفة الخاصة

والعامة، وذلك بإكمال المعرفة اللزومية الخاصة بكم، فإن أحكام الشريعة مترابطة ببعضها البعض، وبنزول هذه الآية اكتملت دورتها، فإن باباً واحداً من أبواب الشريعة إذا لم يتكلم فيه المشرع وتجاهله كان ذلك نقصاً فيها، فكان الكمال باكتمال الأنوار الفقهية المحتواة فى كتب الفقه فافهم.

واعلم أن هذا التشريع الإلهى الذى يتلقاه الأنبياء عن الله فينقلونه إلى البشر، هو تشريع منزه عن النقص والخلل، وهو أنسب القوانين الصالحة للذوات الآدمية، فإن الحق قد علم ما يصلحها وما يفسدها، ولما رأى السفهاء من علية القوم الترخص فى الحدود هجروا الشريعة إلى غيرها مما سهل من قوانين الأمم الكافرة فهجروا قتل القاتل فى الحدود واكتفوا بحبسه، وهجروا قطع اليد فى السرقة، وهجروا رجم الزانى، كل ذلك لكى يسهلوا الفساد لخاصة أنفسهم أولاً ولغيرهم ثانيا، فأصابهم بذلك الذل والهوان والتأخر، لما هجروا الكمال إلى النقص، ولما هجروا الصلاح إلى الفساد والشذوذ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ ﴾

أى طهروا جوارحكم من أدران المعاصى الظاهرة والباطنة، لكى تدخلوا بها إلى الحضرة الإلهية وهى منزهة عن النقائص، ولا يتحقق لها ذلك إلا بوقوع الماء الإلهى على تلك الجوارح، وهو ذلك الماء الذى حمل عرش الرحمن منذ الأزل، فلم تكن الحضرة لتجد ما تطهر به تلك الجوارح وتزيل عنها الظلام أفضل من الماء.

واعلم أيدك الله أن الماء أقوى من التراب فى التطهر، وإن كان التراب مطهراً مثل الماء، إلا أنه أقل بكثير فى قوة تطهيره من الماء، إلا أنه عند فقده يحل محله، فهو بمثابة حلول الأدنى بدلاً من الأعلى.

ولذلك منع الأكابر كشيخنا التجانى ﷺ ذكر بعض الصلوات العالية بالطهارة الترابية، وأبوا إلا ذكرها بالماء فقط.

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ ﴾

أى وإن كنتم محجوبين من دخول الحضرة فطهروا ذواتكم لكى تدخلوا حضرة الله، ذلك لكون الجنابة أكبر حجاب عن عالم النور المجرد، أى فتجنبوا حجاب القلب، وأزيلوه بطهارة الروح والقلب حتى يرى العالم الأكبر.

ولذلك طُلب من المجامع أن يستتر (أى يحتجب) عن الحضرة الإلهية، وهو من أكبر الآداب لمن دخل فى الجماع، ولذلك روى عن الصديق الأكبر سيدنا أبى الصديق ﷺ أنه كان إذا دخل الخلاء (**وهو الحدث الأصغر**) غطى وجهه بثوبه، وحكى عنه أنه لم يلمس ذكره بيمينه منذ أن أسلم.

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ۚ ﴾

واعلم أنه لما كان التيمم أقل رتبة من التطهر المائى، فإن الحضرة الإلهية أوجبته على عضوين فقط وهما الوجه واليد، وأسقطت وجوبية

باقى الأعضاء منه، وذلك لرمزيته وعدم تأثيره فى إزالة الحدث كالماء، فإن الماء أقوى من التراب، ولذلك قال سبحانه بعد ذلك: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ أى ما يريد الله أن تقعوا فى الحرج من بقاء الحدث لانعدام وجود الماء ولكن يريد ليطهركم فأنشأ لكم عنصراً آخر بديلاً لكى تتم به الطهارة.

﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦ ﴾

أى وليتم نعمته عليكم بإيجاد ذلك البديل الذى هو أقل رتبة من العنصر الأصلى (الماء)، وهذا يستوجب الشكر حيث لم يضيق الحق عليكم كما ضيق على الذين من قبلكم، حيث جعل التوبة فى شرائعهم بقتل النفس.

فإن إيجاد البديل الأدنى عوضاً عن العنصر الأعلى، فإن ذلك من منائح الحق لهذه الأمة المحمدية المجيدة، والتى يسر الله لها الكثير من الرخص، وكتب الفقه مشحونة

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧ ﴾

اعلم أنه ما من شئ يغضب الألوهية أكبر من تشبيه الحدث بها، فإنها لا تغفر ذلك ولا تتهاون فيه أبداً، وتخلد من قال ذلك فى النار، فإن الألوهية تتسامح فى كل المعاصى إلا فى الشرك بها، فمن أشرك

فهو مقطوع بدخوله النار، بخلاف الفاعل لباقى الكبائر من قتل وزنا وخلاف ذلك من المعاصى فلا يجوز القطع بدخوله النار، بل أمره موكول إلى الله سبحانه، وحكاية الرجل الذى قتل مائة نفس ثم غفر الله له وأدخله الجنة خير دليل على ذلك، وقد ورد الخبر بذلك عنه ﷺ.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

أى لا أملك سوى نفسى وأخى لكى أقدمه قرباناً لك فى الجهاد، حيث قال بنو إسرائيل: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ ﴾ فتصدا هذان القطبان للدفاع عن الله عز وجل.

ومن آداب هذه الآية، وهو أدب نبوى راقٍ أن موسى عليه السلام لم يطلب من ربه النصر على بنى إسرائيل الذين خذلوه وقالوا له: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ ﴾، بل ترك الأمر لله سبحانه وقال: ﴿ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ ، فطلب الفصل فى القضية بدون أن يطلب النصر من ربه، وهو من آداب الحضرة العرفانية فافهم، فإنه اتخذ الحق وكيلاً عنه وترك الأقدار لمولاه، والأكابر يرون طلب النصر اعتراضاً على أقدار الحق فيهم ولذلك قال سيد الأولين والآخرين ﷺ لربه لما آذاه أهل الطائف: لئن يكن بك غضب على فلا أبالى، ولم يطلب خليل الله إبراهيم عليه السلام الانتصار لنفسه وهو ملقىً فى النار، بل سلم الأمر لخالقه فقال: علمه بحالى يغنيه عن سؤالى، فانظر رحمك الله إلى معاملة هؤلاء الأكابر لأنفسهم وهم فى أحرج المواقف، كيف سلموا الأمر لله ولم يتبعوا خطوط النصر، ولو كان ذلك فيه نصرهم.

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

كان المعلم للبشرية كافةً كيفية دفن موتاهم هو غـراب لا أكثـر، وهو رمز عجيب، وخبر غريب، ونبأ مطرب لأهل المعرفة لا يغيب فإنه سبحانه قد يعلم الكبير بالحقير، وإلا فكيف علمت النملة نبى الله سليمان حقيقة الشكر فقال بعد محاورتها وهو يبتسم ضاحكا:﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾.

وكيف حير الحق سبحانه البشر بالذباب، وهو خلق حقير قذر فقال سبحانه: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾، فعلمنا الحق سبحانه بالذبابة أنها إذا سلبت شيئاً لا يسترد منها، فهى المحولة الخيرات إلى سموم تقتل بها وتفتك وتنقل بها الأمراض، فهى تأخذ الخير وتعطى الشر، وتسلب النفع بها وتفرز بدلاً منه الضرر وهذا الهدهد جاء لكى يعلم سليمان فقال له: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾، وعلمنا الحق سبحانه بالبعوضة، فقال إنه لا يستحى أن يضرب مثلا بها .

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾ ﴾

وذلك لعزة هذه النسمة على بارئها، فلا تقتل تلك الروح إلا بحـق كحد من الحدود الإلهية .

فكأن من قتل نفساً بغير مقتضى يوجب ذلك فكأنه عطل التناسل الذى اقتضته الألوهية، فإن الألوهية أرادت بقاء التناسل فى الأكوان لبقاء المقتضيات التى أرادتها من تلك الأعيان، ومن أهم هذه المقتضيات بقاء الكثرة فى الأكوان فافهم، فإن الألوهية ما خرجت عن الوحدة إلى الكثرة إلا لكى تعرف .

فمن قتل تلك النفس بغير حق أو فساد فى الأرض فكأنه أراد للإلوهية أن لا تعرف، فكأنه حجب القاتل عن معرفة ربه .

﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ومن أحياها بنفث المعرفة فيها لكى تتعرف على خالقها، فهو بمثابة من أحيا جميع الأمة، وذلك لإيصال هذه الأمة إلى معرفة خالقها، وهذا بخلاف من قتلها ووقف حائلاً دونها لكى تتعرف على بارئها، وهو قوله ﷺ ((**لئن يهدى بك الله رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**)).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

اعلم أيدنى الله وإياك بروح منه أن العارف فى أثناء سيره إلى الله لابد له من قوة روحية أعلى منه تأخذ بيده إلى الله .

ومن هنا طالب الحق سبحانه العارفين أثناء مراحل سيرهم إليه أن يبتغوا الوسيلة المرقية لأرواحهم والناقلة لهم من مقام إلى مقام، فإن

العارف لا يصل بنفسه إلى حضرة الله وهذا لم يكن لأحد إلا بوسيلة ذات طاقة روحية أعلى منه ترقيه لما هو أعلى من طاقته الروحيـة، التى لا يستطيع هو أن يصل إليها بنفسه.

وهذا بخلاف الأنبياء لا يكون بينهم وبين الله حجاب حتى يتخـذوا إليه سبحانه وسيلة، فإنهم لا حجاب بينهم وبين الحق عز وجـل ولا وسائل ولا وسائط بينهم وبين حضرة الله سوى الملك الناقـل لمـادة الوحي، وهم لا يتخذونه وسيلة إلى الله فحاشاهم من ذلك، ولذلك لمـا جاء جبريل إلى إبراهيم عليه السلام وهو ملقى فى النار وقال له: ألك حاجة؟ قال: أما لك فلا ولكن علمه بحالى يغنيه عن سؤالى، ورفض وساطته بينه وبين ربه ولم يتخذه وسيلة وحاشاه من ذلك، وأما نبينـا ﷺ فكيف يتخذ مثل جبريل وسيلة وقد قال له جبريل عليه السلام ليلة المعراج: هنا يفارق الحبيب حبيبه والله لو تقـدمت خطـوة واحـدة لاحترقت. والأولياء شأنهم أضعف بكثير فلابد لهم من وسائل ترقيهم وتحميهم وتربيـهم سواء من أمثالهم من الأولياء تكون وسيلتهم؛ أوقـد تساعدهم روحانية الأنبياء فتكون وسيلتهم إلى الله .

فإن القوة الروحية للأنبياء خارقة وقاهرة وقاتلة ألا ترى أن موسى عليه السلام هو أحد حملة العرش الثمانية، وألا ترى كيـف انفعـل الكون لهمة محمد ﷺ فانشق القمر نصفين، فهل يستطيع ولى مهمـا بلغ شأنه أن ينفعل له الكون هكذا فينشق له القمـر نـصفين؟ وهـل يستطيع ولى أو ملك يقرب أن يتخطى ذلك المكان الذى قـال عنـه جبريل عليه السلام: والله تقدمت خطوة واحدة لاحترقت بنور الجبار؟

وهل يستطيع ولى أن يكون من ضمن حملـة العـرش الثمانيـة؟ فروحانية الولى ضعيفة جداً بالنسبة لروحانية النبى ﷺ، ومثال ذلـك

كحلقة ملقاة فى فلاة أو كإبرة غمست فى البحر ثم أخرجت، ولذلك يحدث لأهل الديوان خوف شديد وذعر إذا حضر النبى ﷺ فيه، وذلك لقوة أنواره ﷺ الحارقة والمهلكة والمميتة، ولولا اللطف الإلهى لأهلكت من فى الديوان من الأولياء.

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

أى اقطعوا اليد الآخذة حتى لا تمتد فى الأكوان بالفساد، فإن اليد هى يد الله وهى دالة عليه، فكيف يصح لها الانحراف والخروج عن الفطرة الإلهية السليمة؟

ولما كانت الصنعة تدل على خالقها، فإن الحق سبحانه أراد لهذه اليد التطهر من العبث الذى لحق بها، حتى لا تمتد فى الكون بالفساد والعبث، ولما قال الحق سبحانه عن نفسه: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾، فقد عدل هذا الفساد بيده التى تعلو كل يد، فإنه الصانع لهذه اليد، ما أراد لها إلا أن تأخذ وتعطى فى الأكوان إلا بحق الله.

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴿٤٩﴾ ﴾

عتاب لطيف له ﷺ من قبل الحضرة الإلهية أن لا يتبع الهوى، وأن يتبع ما أمره الله به من الأوامر الإلهية، وقد دأب الحق سبحانه على عتاب الأنبياء على ما لم يرتكبوه، وهو أدب عال رفيع، لا يعرف سره، قد يقال للنبى والمقصود من العتاب أمته لا هو نفسه، فإن الأنبياء معصومون من الوقوع فى الزلل، فلا يجوز أن يوجه الكلام

إلى خاصة أنفسهم .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴿٦٤﴾ ﴾

أى اتهموه سبحانه لعنهم الله بالعجز فى العطاء، فغلوا أيديه سبحانه وحاشاه من ذلك لعنهم الله بكفرهم، ومن أشد كفراً ممن حقد على مولى الموالي، وهو يرزقه ليلاً ونهاراً.

وإنما اتهموه سبحانه بما فيهم من بخل وشح وتقتير فى العطاء، فأرادوا نقل صفة البخل التى فيهم إليه سبحانه، وهذه دوماً صفة الحقود، يتهم غيره بما فيه، وهذا لتسلط القهر الإلهى عليه وصفة الجلال الإلهية .

﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

فإنهم ــ أى اليهود ــ هكذا صفتهم الآن فى السعى فى الأرض بالفساد، وإيقاد الحروب والفتن.

فإنه لم يكن هناك طائفة غلب عليها المكر الإلهى مثلهم، واعلم أنه مع قيام الساعة يتسلط عليهم الجلال الإلهى ــ الحادث الآن ــ من إيقاد الحروب ضد المسلمين، والوقوف ضد مصلحتهم بالمرصاد، ولولاهم لارتاح الكون وهدأ الوجود، ولكن لهم نقطة ضعف حكتها ههنا الآية أنهم كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، فمكرهم دائماً يذهبه الله أدراج الرياح، فلا تكون لهم دولة بإذن الله فإن الله سيطفأ شوكتهم كما قال ولو تحقق المسلمون بهذه الآية لارتاحوا وأراحوا وعلموا أن أى حرب مع اليهود سيطفأها الله بنص الآية .

ولذلك فإنهم لا يشعلون حروباً خوف الهزيمة، وإنما يغدرون بأعدائهم بالخيانة والدسائس والطعن من الظهر.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾

أى ولو أنهم ـ أى اليهود والنصارى ـ أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، لتحققوا حق التحقق أن شريعتهم قد نسخت بشريعة الإسلام فاتبعوه، فحينذاك يرزقهم الله من فوقهم ومن تحت أرجلهم بلا تعب منهم، لأنهم حكموا التوراة والإنجيل واتبعوا ما فيهما من أمر الله لهم باتباع هذا النبى الأمى فى هذين الكتابين المنزلين من قبله سبحانه.

وصدق رسول الله ﷺ عندما قال: ((**والذى نفسى بيده لو أن موسى بن عمران كان حياً ما وسعه إلا اتباعى**)).

﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾

منهم أمة مقتصدة، أى طالبة لكشف حقيقة هذا الدين، فلما علموا أنه الدين الحق اتبعوه ودخلوا فيه.

وهم فريقان:

فريق أسلم فى الظاهر.

وفريق أسلم فى الباطن.

منهم كثير من القساوسة.

حدثنى أحد العمال قال: كنا نعمل فى الفاعل والبناء فى أحد الكنائس، فأحب أحدنا أن يتغوط، فصعد ليقضى حاجته على سطح

الكنيسة، فوجد قسيسا قد افترش سجادة وهو يصلى، فلما رآه فزع وجاء إليه وقال له: استر على فإنى مسلم والنصارى لا يعلمون بذلك.

وحدثنى أحد الأشخاص بمصر المحروسة أنه كان يمشى مع رفيق له على جانب أحد الطرقات، فوجد على الجانب الآخر قسيساً يمشى وهو فى غاية الجمال، فقال لصاحبه: سبحان الله أليس من الحرام أن تدخل هذه الخلقة الجميلة النار؟ قال: فما استتم الكلام، حتى قطع القسيس الطريق وجاءنا وقال: ومن قال لكم أننى لست مسلماً.

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴿٦٧﴾ ﴾

أى حصنك بسرادقات اللطف، وأسبغ عليك حصون التمكين، وأمدك بجنود النصر، وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً.

واعلم أن العصمة لا تكون إلا لمن صنعه الله على عينه كموسى عليه السلام، ولمن قيل له ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ كمحمد ﷺ.

واعلم أن العصمة تأتى تدرجاً لا مرة واحدة، وذلك لعظم أنوارها.

فقد قيل لمحمد ﷺ أولاً: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ ﴾.

وقيل له: ﴿ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾.

ثم قيل له: ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾.

ثم قيل له: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

حتى قيل له: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ فانتهى الأمر، وليس من هو خارج العين كمن هو بداخلها.

﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞۖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

أى أنه حدث ــ أى عيسى عليه السلام ــ قد تلبست به صفة الحدث، وهى صفة الأكل، فكيف نضاهى بالحدث (العدم) المحدث القديم الذى خالف الحوادث وقام بالأشياء ولم يقم به شئ، سبحانه وتعالى عما يشركون، وقد خذلهم الله فأراد أن يقول لهم: هل الربوبية تأكل الطعام مثل الحدث ؟.

وليس مُعلٌ الكون كالعلة الحادثة، كما أشار إلى ذلك الحلاج رحمه الله فى الطواسين وفى تفسيره للقرآن العظيم.

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

وهؤلاء أهل المعرفة من القسيسين والرهبان النصارى، سواء من أعلنوا معرفتهم وإسلامهم فى الظاهر أو الباطن.

وقد تكلمنا عليهم فيما مضى.

أقول واعلم أن ظاهر حالهم فى الكفر لا يمنع صحة إسلامهم فى الباطن لقوله تعالي: ﴿ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ .

وحكاياتهم مشهورة ــ أى العارفين القساوسة ــ فى كتب الحكايات والرقائق .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

هذا الخطاب يستثنى منه العارفون أهل الورع، الذين يهجرون مائة صنف من الحلال لأجل شبهة فيه، فقد ظل أبو حنيفة عشرة سنين لا يأكل اللحم لأجل ماشية سرقت بالبلد الذى كان يقيم فيه.

وكانت أخوات بشر الحافى يحرمن غزل الصوف على ضوء قناديل الشوارع .

وكان جد الإمام الشعرانى﵀ لا يأكل عسل النحل، بدعوى أنها ترعى فى غيطان الناس.

وكان يحرم أكل حمام الأبراج لأنه كان يذهب ويأكل من غيطان الناس .

وظل إبراهيم ين أدهم ﵁ خوليا فى بستان لسنوات طويلة وهو لا يعلم طعم الرمان أحلو أم حامض .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴿١٠١﴾ ﴾

فيه نهى للعارف أن لا يستعجل بلوغ المقامات قبل أوانها، ففيه إساءة أدب وتأفف وتذمر من الصبر، وهو بهذا لا يحكم مقام الصبر جيداً، وبالتالى يقتضى نقص مقامه، فلابد من إحكام مقام الصبر

وقطعه، فينتظر الأمر بورد الخبر الإلهى عليه فى محله وزمانه المنتظر.

﴿ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾

وهذه صفة المتأدبين من أهل الحضرة، الصابرين الذين لايسألون الأشياء إلا فى مواضعها الإلهية المحددة عند الله، وقد أشير بالتنزل القرآنى كناية عن التنزل العرفانى والفرقانى على قلوب العارفين، حيث تبدو لهم عرائس التجليات على منصة المسامرات، حيث وقفوا مع صبهم فى ساحة الانتظارات، حتى تعطف عليهم المحبوب بالمقسوم، فى الوقت المعلوم.

﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

وهم أهل الاعتراض، الذين سقطوا فى الامتحان، فمنعتهم حظوظ النفس من الانتظار.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

أى أن أهل الصدق لا يضرهم انحسار الناس عنهم، ولا يضايقهم قلة وجود الصادقين فى الزمان.

وحكى الإمام الشعرانى رحمه الله عن نفسه فى المنن أن من منن الله عليه أنه يفرح فرحاً شديداً إذا أعرض الناس عنه وانحسر

المريدون من حوله وانفضوا، ثم قال وهذا من خلق الصديقين الفارين بأنفسهم إلى الله.

وصدق من قال: ما أكثر الصالحين وما أقل الصادقين.

وكان شيخنا عبد المجيد ﷺ يقول: الإنسان الكامل غير موجود فى هذا الزمان وإذا وجد لا يعرف.

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾

أنكروا علمهم فى حضرة الله هل أجيبوا أم لا ؟ وذلك تأدبا مع حضرة الإطلاق العلمى، ولذلك خاطبوا حضرة الإطلاق العلمى بقولهم: إنك أنت علام الغيوب.

فهنا تضيع العلوم، وتتيه الفهوم، و يتخلى عن الحول والقوة، ولو أجابوا فى هذه الحضرة الإطلاقية لكانوا مثل من لم يعطى المقام حقه.

ولكنهم بإسقاطهم لحولهم وقوتهم، وتنازلهم عن علمهم، أعطوا حضرة ربهم حقها، ولذا قال العارفون: العجز عن إلا دراك إدراك.

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ۘ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۖ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴿١١٠﴾ ﴾

اعلم أن روح القدس هو الروح الإلهى، وبمعنى أصح هو السر المحرك للوجود بأسره، فيحييه ويميته، ويحركه ويسكنه، ويقبضه

ويبسطه، وهذا الروح لو سحبه الحق سبحانه لحظة عن الوجود لتوقف كل مقتضى فى الوجود، وهذا السر لا يعطى كاملاً لمخلوق، فإن ذلك من حرمات الألوهية وخصوصياتها بل يعطى جزئياً فقط، ومن أولياء هذه الأمة من أعطى لهم هذا السر فتصرفوا به، ومثال ذلك لما نظر عبد القادر الجيلانى للعصفور الذى ذرق عليه فخر ميتاً فأخذه وأمر عليه يده فقام وطار، فلا فضل ههنا للمتصرف سوى الاسم، أما التصرف الذاتى فهو من اختصاصات الربوبية، ولذا ذكر الحق سبحانه المتصرف بهذا السر فقال له: بإذنى، وكرر بإذنى ثلاث مرات عقب التصرفات الثلاث المذكورة فى الآية فافهم.

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

قولهم " هل يستطيع ربك" فيه نقص فى يقينهم، وإساءة للحق عز وجل فى قدرته على فعل ذلك، ولذلك قال لهم المسيح عليه السلام:

﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

ولذلك فضل أصحاب محمد ﷺ أصحاب أولى العزم بالأدب التام مع الله.

فلم يقولوا له ﷺ كما قال أصحاب موسى عليه السلام له:﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾

ولم يقولوا له ﷺ كما قال أصحاب عيسى عليه السلام له: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾.

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿١١٩﴾ ﴾

وما نفعهم صدقهم إلا لكونه أساس الأعمال، وهو عندنا أهم من التوبة، إذا أن التوبة تحتاج إلى صدق فيها، ولكن الصدق لا يحتاج إلى توبة، لكون التائب لايتوب حتى يصدق.

ومنبع الأخلاق الإلهية كلها تبنى على هذه الخصلة الشريفة، التى من فقدها فقد نفسه ودينه وآخرته وجنته.

ولذلك يسمى الكامل صديقاً، ولا يشتق له اسم آخر من غير هذه الصفة، فلم يقال له: صابراً أو شاكراً أو راضياً، وإنما قيل له صديقاً، فتعلمنا من الحق سبحانه أن الصدق هو مجمع الصفات الحقيقة، وهو يسمى عندنا أم الصفات، وهو بمثابة الشجرة التى تتفرع عنها الأخلاق.

﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾

نعم فإن رضاءهم عن الحق سبحانه يهم الحق نفسه، وإلا لما قال لنا ذلك تصريحاً فضلاً عن أن يكون تلميحاً، فالراضون عن الله هم كمل العارفين، الذين انتخبتهم الألوهية منذ ألست بربكم أى منذ عالم البدء الأول، فهم حاشية الله وجلساء الحق على بساط حضرته.

وهم الذين قربهم الله إليه وآواهم إلى كنفه، بادرهم المليك قبل أن يبادروه، وسابقهم اللطيف الخبير قبل أن يسابقوه، فرضى الله تعالى عنهم ورضوا عنه.